٢ – شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أبو العتاهية وبشار وأبو نواس : هؤلاء هم الشعراء الثلاثة الذين كانوا أعلام هذه الثورة فى الشعر ، قضوا فيها على طريقته القديمة التى مضت فى عصر بنى مروان جامدة على جاهليتها العربية ، لا تفكر فى تجديد ، ولا تنظر الى ما حدث فى العرب من أحداث دينية وسياسية واجتماعية ، خلقت منهم أمة جديدة ، وشعباً يتألف من أجناس مختلفة ، وله نظر جديد فى الأدب يخالف نظر أولئك العرب الخلص ، وذوق أرق من ذوقهم فى الشعر والنثر . وقد بدأت هذه الثورة لينة هادئة فى بشار بن برد ، شديدة لا تبلغ درجة العنف فى الحسن بن هانئ (أبى نواس) ، شديدة عنيفة فى إسماعيل بن القاسم (أبى العتاهية)

وكان مظهر هذه الثورة فى أربع نواح من الشعر :

(١) ألفاظ الشعر التى انتهت ثورتهم فيها الى نقل الشعر الى ألفاظ العربية الحضرية ، وهجر ألفاظها البدوية الخشنة ؛ وإذا قلنا ألفاظ الشعر فانا نعنى بذلك ما يشمل معانيه ، لأن التجديد فى الألفاظ يستدعى التجديد فى المعانى حتما حتى يتلاءم أمرها ، وتتناسب رقة المعانى وجمالها مع رقة الألفاظ وصقلها

(٢) طريقة الشعر ومذهبهم فى ترتيب القصائد من مطالعها الى مقاطعها

(٣) أغراض الشعر ومقاصده

(٤) أوزانه وقوافيه

فأما ألفاظ الشعر فقد اشترك الشعراء الثلاثة فى تلك الحركة التى انتهت بنقلها من البداوة الى الحضارة ، وكان بشار أول من بدأ بذلك وفعله عن قصد اليه يحقق فيه معنى تلك الثورة ، فانها لا تكون إلا عن قصد ، ولا تثبت بالاعتباط والمصادفة ، ولكنه لم يصل فى ذلك إلى غاية هذه الحركة ، لأنه نشأ متقدماً على أبى العتاهية وأبى نواس ، وقضى شطراً كبيراً من عمره يأخذه بطريقته الجديدة وحده ، وشعراء العصر المروانى يحيطون به من هنا وهناك ، ويعيبون عليه تلك الطريقة التى يأخذ بها ، ويرمونه بالقصور والعجز عن اللحاق بالفحول ، فيؤثر هذا فيه بعض التأثير ويمسكه عن الغلو فى طريقته والاندفاع فيها ، ويجعله يأخذ أحياناً فى تقليد أولئك الفحول ، والأخذ بطريقتهم فى الغريب ، والتشادق بالألفاظ

وقد مدح رُؤْبَةُ بن العَجّاج عُقْبَةَ بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر ، فاستحسن ذلك من رؤبة . فقال له رؤبة : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ . وكان رجزهم فى ذلك الوقت غاية ما وصلت اليه طريقتهم البدوية فى إيثار الغريب والتشدد فى اللفظ ، فكان هذا سبباً فى إنشاء بشار أرجوزته فى مدح عقبة بن مسلم :

يا طَلَلَ الحى بذات الصَّمْد
بالله خَبِّرْ كيف كنت بعدى
أحسنت من رعد وتِرْبِ رعد
سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تُرائِى إذ رأتنى وحدى
كالشمس تحت الزِّبْرِجِ المنقد

إلى أن قال فى مدح عقبة :

أسلم وحييت أبا الملِدّ مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النَّيْل ورِىّ الزند أغر لَبّاس ثياب الحمد
لله أيامك فى معد وفى بنى قحطان غير عد
كل امرىء رهن بما يُؤَدِّى ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كِسرَى وكآل بُردِ أنكبُ جافٍ عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

وروى الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخَلَفٌ الأحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قُتَيْبة ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فانشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بَكِّرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « إن ذاك النجاح » « بَكِّرا فالنجاح » كان أحسن ، فقال بشار : إنما

بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بَكِّرا فالنجاح » كان هذا من كلام المُوَلَّدين ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقَبَّل بين عينيه . وهذه القصة تعطينا أن طريقة بشار الجديدة « طريقة المولدين » كانت قد تقررت في ذلك الوقت ، وصارت واضحة النهج ، معروفة الأسلوب واللفظ ، وتعطينا أن بشاراً كان لا يعدل عنها إلا لدواع نادرة تحمله بتكلف طريقة الأقدمين ، ليثبت لهم قدرته عليها ، وأنه يهجرها عن عمد ، ويتركها عن اعتقاد بعدم صلاحيتها ، بعد انتقال الأمة من البداوة الى الحضارة ، ومن خشونة العيش الى لينه ، ومن ظلمة الأمية الى نور العلم ، ولكنه كما قلنا لم يصل في تلك الطريقة الى غايتها ، ولم يبلغ بها الى الدرجة التي وصلت اليها في شعر أبي نواس وأبي العتاهية ، من تلك السهولة الممتنعة التي تقرب الشعر الى الناس وتبعده عنهم ، وتعتمد في ذلك على القدرة الشعرية الحق ، لا على التشدق الذي يخفي وراءه من الضعف الشعري ما يخفى ، ويوهم الناس أنهم لا يقدرون عليه ، وهم لا يعجزهم منه إلا هذا التشدق وحده

وأما طريقة الشعر فلم يحدث فيها بشار حدثاً ، بل مضى على ابتداء القصيد بالنسيب كما مضى عليه من قبله ؛ وقد ثار أبو نواس على هذه الطريقة ، وأخذ على الشعراء ابتداءهم القصيد بذكر الأطلال في عصر الحضارة والعيش المستقر ، وبذكر هندا ودعدا بعد أن امتلأت القصور في عصرهم بمن لا يصح أن يجري معه ذكر لهند ودعد ؛ وقد ذكروا لأبي نواس في تنديده بذلك قوله :

صفةُ الطلول بلاغة القِدْمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

وقوله :

لا تَبكِ ليلى ولا تَطرَبْ الى هِنْدِ
واشرب على الوردِ من حمراء كالوَرْدِ

وقوله :

سقياً لغير العلياء فالسَّنَدِ ... وغير أطلال مَيّ بالجَرَدِ

وقوله :

يا رَبْعُ شُغْلُكَ إني عنك في شُغُلِ
لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي

وقوله :

تبكي على طلل الماضين من أسد ... لا دَرَّ دَرُّكَ قل لي من بنو أسد

لا جَفَّ دمع الذي يبكي على حجر
ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وهذه ثورة على القديم حقاً ، ثورة تفتن بعض دعاة التجديد في عصرنا ، ولكنها عندي ليست هي الثورة الصحيحة التي يجدر بها اسم الثورة ، وتستحق أن تدعى تجديداً في الأدب ، وإنما هي ثورة شُعوبيةٌ عابثة ، ولا فرق بين ابتداء القصيد بالنسيب وابتدائها بوصف ابنة العنب ، بل ربما يكون ابتداؤها بالنسيب أروح عند النفس ، وأخف في السمع ؛ وإنما التجديد في ذلك ما سبق به شاعر عصر بني مروان العظيم : الكُمَيْتُ ابن زيد الأسدي ، وهذا في هاشمياته التي أنشأها في مدح بني هاشم والدعاية لهم في ذلك العصر ، وكانت أول شعر قاله فسترها ثم جاء الفرزدق فقال له : يا أبا فِراس إنك شيخ مُضَرَ وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي ، فقال له : صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك ؟ قال له : نُفِثَ على لساني فقلت شعراً أحببت أن أعرضه عليك ، فان كان حسنا أمرتني باذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره ، وكنت أولى من ستره عليّ ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشد ما قلت ، فأنشده :

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ

قال : فيم تطرب يا ابن أخي ؟ قال :

ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

قال : بلى يا ابن أخي ـ قال :

ولم يُلهني دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربني بَنانٌ مُخضَّبُ

قال : وما يطربك يا ابن أخي ؟ قال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بني حَوّاءَ والخير يطلب

قال : ويحك من هؤلاء ؟ قال :

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نابني أتقرب

قال : أرحني ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشم رهط النبي فانني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مَوَدَّةً ... إلى كنفٍ عِطفاه أهلٌ ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مِجَنًّا على أني أُذَمُّ وأُقصَب
وأُرْمَى وأَرْمِي بالعداوة أهلها ... وإني لأوذَى فيهم وأُؤنب

فقال له الفرزدق : يا ابن أخي أذع ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي ؛ وفي رواية أخرى أنه قال له : قد

طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا الى ما تركت أنت الطرب إليه

فهذا هو التجديد الصحيح فى مطلع القصيد ، لا ابتداؤه بوصف الخمر بدل النسيب كما أراد ذلك أبو نواس ، فكل منهما غرض مستقل من أغراض الشعر ، والتمهيد به لغيره من الأغراض الشعرية تصنع قبيح ، وتكلف مسترذل

وقد سلم أبو العتاهية من هذا العبث فى مطلع قصيده بعد أن أقلع فيما يأتى عن سنة شعراء عصره ، وأخذ نفسه بالجد فى الشعر وترك العبث واللهو فيه

وأما أغراض الشعر فان أبا العتاهية هو حامل راية التجديد فيها ، وصاحب القِدْح المَعلىّ فى تذليل ذلك الشعر العربى الجامع للآداب الاسلامية العالية ، والأخلاق الكريمة السامية ، والمواعظ الحسنة النافعة ، وما إلى ذلك مما يدخل فى نشر الثقافة الاسلامية ، واستخدام الشعر فى الدعاية اليها ، وأخذ الناس جميعاً بها ، حتى تعلو كلمة الشعر عليهم أجمعين ، ويكون الشعراء الحكام على الملوك والعظماء ، ولا يكون الملوك والعظماء الحكام على الشعراء ، ولقد نجح أبو العتاهية فى ذلك أيما نجاح ، وذاع شعره فى الشرق والغرب ، وطار به صيته عند الأدباء والعلماء والعظماء فى سائر الأمم واللغات ، وأدى بهذا كله رسالة الشعر فى عصره أحسن تأدية . ولم يكن لبشار ولا لأبى نواس فى ذلك أثر يصح أن نذكره ، اللهم إلا بعض أبيات نادرة تأتى فى أثناء القصيد على عادة غيرهما من الشعراء ، وإلا قصيدة بشار فى الدعاية لابراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور ، وكان بشار من أشياعه ، وهى قصيدة جليلة نعى فيه على المنصور قيام حكمه على الاستبداد بالرعية ، ونصح ابراهيم أن يقيم حكمه على الشورى بأبياته المشهورة فيها :

أبا جعفر ما طولُ عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم

على الملك الجبار يَقْتَحم الردى
ويصرعه فى المأزِقِ المتلاحم

كأنك لم تسمع بقتل مُتوَّج
عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

تَقسَّم كسرى رَهطُه بسيوفهم
وأمسى أبو العباس أحلام نائم

ومروان قد دارت على رأسه الرحى
وكان لما أجْرَمْتَ نَزْرَ الجرائم

فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم
ولا تتقى أشباه تلك النقائم

تجردت للاسلام تعفو سبيله
وتُعرى مَطاه لليوث الضراغم

فما زلت حتى استنصر الدين أهله
فعاذوا عليك بالسيوف الصوارم

أقول لِبسَّام عليه جَلالةٌ
غدا أريحياً عاشقاً للمكارم

اذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعن
برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فان الخوافى قوةٌ للقوادم

وما خير كف أمسك الغلُّ أختها
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وخلِّ الهوينا للضعيف ولا تكن
نؤوماً فان الحر ليس بنائم

وقد صرف بشار وأبو نواس شعرهما فى العبث والمجون ، وهتك الأعراض ، والخروج على الدين والآداب ، حتى ضج منهما الناس فى عصرهما ، وساءت فى الناس سيرتهما . وأما أوزان الشعر وقوافيه فلم يكن لبشار ولا لأبى نواس أثر يذكر فيها ، وأبو العتاهية هو الذى جدد فى تلك الناحية أوزاناً طريفة ، واخترع فيها قوافى جديدة ، ومضى فيها على نحو لم يسبقه إليه أحد من الأوائل ، ولم يكن يدخل فى العروض الذى عرف لعهده ؛ وقد سئل من بعضهم هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وهذا جواب له قيمته فى بيان اعتداد هذا الشاعر بنفسه ، وفى الدلالة على أنه كان يذهب فى الثورة على القديم مذهباً لم يصل اليه بشار ولا أبو نواس ولا غيرهما من شعراء عصره

وانما نسوق له قولاً آخر له دلالته فى ذلك أيضاً : روى أنه اجتمع مع سلم الخاسر فأنشده بعض أشعاره ثم قال له : كيف رأيتها ؟ قال سلم : لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية ، فقال له أبو العتاهية : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها

فاذا قسنا أبا العتاهية إلى بشار وأبى نواس فيما أحدثوه من التجديد فى هذه النواحى التى هى أهم نواحى الشعر ، وجدناه يربى فيها عليهما ، ووجدنا أنه كان موفقاً فيما أحدثه من التجديد فيها كلها ، ووجدنا أن بشاراً وأبا نواس لم يكن لهما تجديد يذكر إلا فى الناحية الأولى وحدها ، وخرجنا من ذلك كله بأن أبا العتاهية أولى منهما باسم الشاعر المجدد فى هذا العصر

عبد المتعال الصعيدى